

جَمَالِيَّةُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِي الْخُطَابِ الْقُرْآنِيِّ

The aesthetic of introduction and delay in Quranic discourse

د. بورزامة عواد*

جامعة أحمد زبانه-غليزان-(الجزائر) aoued.bourezama@univ-relizane.dz

تاريخ الارسال 2025-03-03 تاريخ القبول 2025-05-05 تاريخ النشر 2025-05-27

ملخص:

يُعَدُّ أسلوب التقديم والتأخير، أحد أهم الظواهر الأسلوبية اتساعاً وتناولاً في البنى التركيبية للخطاب القرآني، من منطلق أنَّ التقديم والتأخير يُراد به ذلك التغيير الذي يطرأ على تركيب الجملة وبنيتها؛ بوصفه عدولاً عن التركيب الأصلي إلى تركيب آخر، وذلك حسب ما يقتضيه السياق، يُلجأ إليه قصد تحقيق فائدة بلاغية، وهي: العناية والاهتمام وحسن التّظيم. ومن هنا، جاء هذا البحث ليروم الوقوف على طبيعة هذا التمثّل، وذلك برصد صوره واستجلاء أبعاده الدلالية والجمالية. ولن يتأتى هذا الرصد إلا من خلال استقراء المواطن الذي تجلّى فيها أسلوب التقديم والتأخير في الخطاب المتعالي؛ الذي يُعَدُّ بحقّ سمة بارزة من سمات الجمال في التعبير القرآني؛ الذي فاق وتعالى وتسامى على المتعارف عليه في كلام العرب، شعراً ونثراً.

الكلمات المفتاحية: الجمالية، التقديم، التأخير، الخطاب، القرآن.

Abstract:

The method of introduction and delay is considered one of the most important and extensive stylistic phenomena in the compositional structures of Quranic discourse, on the basis that introduction and delay are intended to be the change that occurs in the composition and structure of the sentence. As a change from that original structure to another structure, according to what the context requires, it is resorted to in order to achieve a rhetorical benefit, which is: care, attention, and good organization. Hence, this research came to aim to find out the nature of this representation, by observing its forms and clarifying its semantic and aesthetic dimensions. . This monitoring will not be possible except through the citizen's induction, in which the method of presenting and delaying was evident in the transcendent discourse. Which is truly considered a prominent feature of beauty in Quranic expression. The one who transcended and transcended what was known in Arab speech, in poetry and prose.

Key words: Aestheticism, presentation, delay, discourse, the Qur'an.

- مقارنة مفاهيمية لمصطلحات البحث:

سنخوض ههنا، في المصطلحات الآتية حدّاً ومفهوماً، وذلك عبر مباشرة عملية حصر الأبعاد المفاهيمية لجملة العناصر، التي ينهض عليها موضوع البحث، كما تناولته المعاجم المتخصصة أو معاجم المصطلحات؛ وهي: الجمالية، التقديم والتأخير، الخطاب، القرآن.

- مفهوم الجمال:

- في المعاجم اللغوية :

جاء في لسان العرب لابن منظور (ت711هـ) : "والجَمَالُ : مصدر الجَمِيل، والفعل جَمَل. وقوله عز وجل : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾¹؛ أي بهاءً وحُسْنًا. ابن سيده: الجَمَالُ الحُسْنُ يَكُونُ فِي الْفِعْلِ وَالخَلْقِ، وَقَدْ جَمَلَ الرَّجُلُ، بِالضَّمِّ، جَمَالًا فَهُوَ جَمِيلٌ... وَجَمَلَهُ أَيَّ زِينَةٍ. وَالتَّجَمُّلُ: تَكَلُّفُ الْجَمِيلِ... وَالْجَمَالُ يَقَعُ عَلَى الصُّورِ وَالْمَعَانِي؛ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: "إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ أَي حَسَنُ الْأَفْعَالِ كَامِلُ الْأَوْصَافِ"²3.

وجاء في معجم الصحاح: "الجَمَالُ : الحُسْنُ. وَقَدْ جَمَلَ الرَّجُلُ بِالضَّمِّ جَمَالًا فَهُوَ جَمِيلٌ، والمرأة جميلة وَجَمَلَاءُ أَيضًا. وَالْجَمَالُ بِالضَّمِّ والتشديد : أَجْمَلُ مِنَ الْجَمِيلِ. وَجَمَلَهُ أَي: زَيَّنَهُ"⁴.

وفي معجم اللغة العربية المعاصرة: "جَمَلَ يَجْمَلُ، جَمَالًا، فَهُوَ جَمِيلٌ. جَمَلَتِ الْمَرْأَةُ: حَسَنَ خَلْقَهَا وَخُلُقَهَا... تَجْمَلُ الْمَرْءُ: تَزَيَّنَ، تَكَلَّفَ الْحُسْنَ وَالْجَمَالَ وَالصَّبْرَ. جَمَلَ أُسْلُوبُهُ: حَسَّنَهُ وَزَيَّنَهُ. جَمَالِيَّةٌ: اسم مؤنث منسوب إلى جمال. دراسة جمالية : تعني العناصر التي تكسب العمل جمالاً فنياً"⁵.

مما تقدّم يتضح جلياً، أن مفهوم الجمال في اللغة يحيل على معنى الحسن والزينة والبهاء، وهو ضدّ القبح.

- في الاصطلاح:

ثمة تعريفات متنوعة في تحديد مصطلح الجمال، بيد أننا سنقف عند مفهوم الجمال في المنظور الإسلامي.

- الجمال في منظور الإسلام:

إنّ الجمال أصلٌ ثابت في الإسلام؛ وهو مفهوم ينهض على تلك التجربة الإنسانية الوجدانية. إنّ الجمال في الإسلام ينبع من الإيمان، فهو سابق على جمال الماديات كالعمارة والزخرف والزينة. " وقد أيد فريق من الفلاسفة وعلماء الجمال في العصر الحديث الارتباط الوثيق بين الأخلاق والجمال، حتى جعلوا علم الأخلاق فرعاً من علم الجمال. وهذا ما يتفق مع المفهوم الإسلامي للجمال إذ وردت لفظة (جميل) و(جمال) في ثلثي آيات في القرآن، تحدّث في موضع منها عن الجمال الحسي. وتحدّث في المواضع السبعة عن الجمال المعنوي والخلقي"⁶.

ومّا لا شك فيه، أنّ الإسلام أولى عناية فائقة بالجمال، أقصد هنا جمال الأخلاق، لا جمال الصورة وزخرفها فحسب؛ " قال علماؤنا : فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخلقة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال. فأما جمال الخلقة؛ فهو أمرٌ يدركه البصر، ويلقيه إلى القلب متلائماً، فتتعلّق به النفس من غير معرفةٍ بوجه ذلك، ولا نسبته لحد من البشر. وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات من العلم والحكمة، والعدل والعفة، وكظم الغيظ، وإرادة الخير لكلٍّ أحد. وأما جمال الفعال ؛ فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق، وقاضيةً لطلب المنافع فيه، وصرفٍ الشر عنه"⁷. ومن شواهد الجمال الحسي في القرآن الكريم؛ قول الله تعالى: ﴿وَالْأَنعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بُلُغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾⁸. جاء في تفسير هذه الآية: "وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة، وهو مرئيّ بالابصار،

موافق للبصائر، ومن جمالها كثرتها، وقول الناس إذا رأوها: هذه نَعَمْ فلان ؛ قاله السُّدِّي . ولأَها إذا راحت توفّر حسنهما، وعَظُم شأَها، وتعلّقت القلوب بها ؛ لأَها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمةً وضروعاً؛ قاله قتادة . ولهذا المعنى قدّم الرّواح على السّراح؛ لتكامل دَرّها وسرور النّفس بها إذ ذاك . والرّواح رجوعها بالعشيّ من المرعى، والسّراح بالغداة ؛ تقول سَرَحْتُ الإِبِلَ أَسْرَحُهَا سَرَحًا وسُرُوحًا ؛ إذا: غدوت بها إلى المرعى فَخَلَّيْتُهَا، وسَرَحْتُ هِيَ"، المتعدّي واللازم واحد"9 .

وأما مثال الجمال المعنوي (جمال الرّوح / الباطن)؛ قول الله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ۤءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾¹⁰ ؛ لقد دلّت الآية الكريمة إلى أن جوهر الجمال الحقيقي هو تقوى الله عزّ وجلّ، وذلك لا يكون إلاّ بالتزَيّن بمكارم الأخلاق ومحمدها.

وفي ضوء هذه المعاني السّامقة، تظهر لنا النظرة الحقيقة للجمال في الإسلام ؛ نَظَرَةٌ كُلِّيَّةٌ تُمَارِجُ بين جمال الشّكل والتركيب والحلقة، دون أن تَغفلَ جمال الرّوح والباطن والخلق.

- المفهوم اللغوي للتقديم والتأخير:

هما مصدران للفعل قَدَّمَ وأَخَّرَ على زنة فَعَّلَ، وجاء اسم الفاعل منهما المَقْدِّمُ والمُؤَخَّرُ، وهما من أسماء الله الحسنى والمصدر منهما التقديم والتأخير¹¹.

جاء في لسان العرب في مادّة (قدم)، " في أسماء الله تعالى المَقْدِّمُ: هو الذي يقدّم الأشياء، ويضعها في مواضعها فمن استحقّ التّقديم قدّمهن ومقدّمة كلّ شيء أوّلُهُ"¹². وجاء في مادة (أخر)، " المُؤَخَّرُ هو الذي يؤخّر الأشياء في مواضعها ، وهو ضدّ المَقْدِّمِ"¹³.

نخلص ممّا تقدّم، إلى أنّ المعنى اللغوي للتقديم هو أوّل الشيء، بينما التّأخير هو تأخير الشيء عن موضعه.

- المفهوم الاصطلاحي للتقديم والتأخير:

- التقديم والتأخير في اصطلاح النحويين:

التقديم هو " خلاف التّأخير وهو أصل في بعض العوامل والمعاملات، ويكون طارئاً في بعضها الآخر، ومما يجب التقديم فيه هو أصل الفعل مع الفاعل، والمبتدأ مع الخبر، والفاعل مع المفعول به، وبقية الفضلات والمكمّلات"¹⁴. أمّا التّأخير " في الاستعمال النّحوي حالة من التّغيير تطرأ على جزء من أجزاء الجملة، وتوجب وضعه في موضع لم يكن له في الأصل"¹⁵.

نستشف ممّا تقدّم، أنّ التقديم والتّأخير في الاستعمال النحوي، يراد به ذلك التّغيير الذي يطرأ على تركيب الجملة وبنيتها، فقد يقدّم لفظ في موضع ويُؤخّر في موضع آخر، وذلك لمقتضى السياق.

وتجدر الإشارة ههنا، إلى أنّ سيّويه¹⁶ (ت180هـ) أوّل من تفتّن لهذا الأسلوب البلاغي، فقد ذكر في معرض حديثه عن تقديم المفعول على الفاعل ، قال: " فإن قدّمت المفعول وأخّرت الفاعل، جرى اللفظ كما جرى في الأوّل، وذلك قولك: ضَرَبَ زَيْدًا عَبْدُ اللَّهِ؛ لأنّك إنّما أردت به مؤخّراً ما أردت به مقدّماً، ولم تُرد أن تشغل الفعل بأوّل منه وإن

كان مؤخراً في اللفظ. فمن ثمّ كان حظّ اللفظ أن يكون فيه مقدّماً، وهو عربيّ جيّد كثير، كأهمّهم إنّما يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم وهم بيانه أعنى، وإن كان جميعاً يُهمّانهم ويغنّيانهم¹⁷.

نخلص ممّا سبق، إلى أنّ الأصل في ترتيب الجملة الفعلية، أن يتأخّر المفعول به على الفاعل، أمّا إذا تقدّم فهذا لغرض بلاغي قصده المتكلّم، أشار إليه سيبويه، وهي: العناية والاهتمام وحسن النظم، حيث يُلجأ إلى هذا العدول عن التركيب الأصلي قصد تحقيق فائدة بلاغية.

- التقديم والتأخير في اصطلاح البلاغيين:

يقول الجرجاني (ت471هـ) في معرض حديثه عن التقديم والتأخير "هو باب كثير الفوائد، جُمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتّر لك عن بديعة، ويُفْضِي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً، يروقك مسمّعه، ويلطف لديك مَوْفَعُهُ، ثمّ تنظر، فتجد سبب أن راقك ولطّف عندك، أن قدّم فيه شيء، وحَوّل اللفظ عن مكان إلى مكان"¹⁸. كما أشار إليه الزّركشي (ت794هـ) في باب "القول في التقديم والتأخير" بقوله: "هو أحد أساليب البلاغة، فإنهم أتوا به دلالة على تمكّنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع، وأعذب مذاق، وقد اختلف في عدّه من المجاز؛ فمنهم: من عدّه منه، لأنّه تقديم ما رتبته التأخير كالمفعول، وتأخير ما رتبته التقديم كالفاعل، نُقِلَ كلّ واحد منهما عن رتبته وحقّه"¹⁹.

وقد بحث ابن الأثير (ت637هـ) أسلوب التقديم والتأخير وأفاض في التأصيل له، إذ نلفيه يقول: "وهذا باب طويل عريض، يشتمل على أسرار دقيقة... وهو ضربان: الأول يختصّ بدلالة الألفاظ على المعاني، ولو آخر المُقدّم أو قدّم المؤخّر لتغيّر المعنى. والثاني يختصّ بدرجة التقدّم في الذّكر؛ لاختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو آخر لما تغيّر المعنى. فأما الضّرب الأوّل فإنّه ينقسم إلى قسمين: أحدهما: يكون التّقديم هو الأبلغ، والآخر: يكون التّأخير هو الأبلغ"²⁰. وتجدر الإشارة ههنا، إلى أنّ جلّ المفسّرين في تفاسيرهم، قد تفضّلوا لوجود أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم، إذ نلفيهم يستخدمون هذا المصطلح في تفاسيرهم، وعباراتهم في هذا الصّدّد كثيرة، من ذلك قولهم: "هو على التقديم والتأخير"، وقولهم: "في الآية تقديم وتأخير"، وقولهم "هو من المقدّم الذي معناه التأخير، وقولهم: "هذا من تقاديم الكلام"²¹؛ وأمثلة ذلك في التفاسير كثيرة، نذكر على سبيل المثال؛ قول ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الدُّنْيَا﴾²²، قال هذه من تقاديم الكلام، يقول: لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدّنيا؛ إنّما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بِهَا²³.

- مفهوم الخطاب:

- في المعاجم اللغوية:

كلمة الحِطَاب تعود إلى الجذر "حَطَب" ومصدرها "حَطَب"؛ "فالحَطَبُ: الشَّائِنُ أو الأَمْرُ صَغُرَ أو عَظُمَ"²⁴. قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا حَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾²⁵، وقال أيضاً: ﴿قَالَ مَا حَطْبُكُمْ إِذْ رُودَتْكُمْ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾²⁶، وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا حَطْبُكَ يُسْمِرِي﴾²⁷.

"والحِطَابُ والمِحَاطَبَةُ: مُرَاجَعَةُ الْكَلَامِ، وَقَدْ حَاطَبَهُ بِالْكَلَامِ مُحَاطَبَةً وَحِطَابًا، وَهِيَ يَتَحَاطَبَانِ"²⁸. أما في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾²⁹ فكانت بمعنى "البيان من الكلام الملخص الذي يَبَيِّنُهُ من يخاطب لا يلتبس عليه، ويجوز أن يكون الخطاب: هو القصد الذي ليس فيه اختصار محل ولا إشباع ممل"³⁰، وَفَصَّلَ الْخِطَابِ: الْحُكْمُ بِالْبَيِّنَةِ، أو اليمين، أو الفقه في القضاء، أو التُّطْقُ بِأَمَّا بَعْدُ"³¹.

"والحُطْبَةُ عند العرب: الكلام المنثور المسجّع ونحوه. والحُطْبَةُ مثل الرسالة التي لها أَوَّلٌ وَآخِرٌ"³². إنَّ أدنى تأمل لهذه التعاريف اللغوية، توحى إلى أنَّ الخطاب هو ما بان من الكلام، حيث يمتاز عن غيره من الكلام بالقصد والاختصار.

- في الاصطلاح :

تعددت التعاريف الاصطلاحية لكلمة الخطاب، وذلك تبعاً لاختلاف المنطلقات الفكرية واللسانية لهذا المفهوم؛ ونشير ههنا، إلى جملة من المفاهيم المختلفة، التي تناولت مصطلح الخطاب بكثير من التحديد والتوصيف؛ وهي:

- الخطاب : "إيصال المعنى إلى السامع عن طريق الكلام"³³.
- الخطاب : "نص مكتوب ينقل من مرسل إلى مرسل إليه"³⁴.
- الخطاب : "هو مصطلح لساني، يتميز من نص وكلام وكتابة وغيرها لشموله كل إنتاج ذهني، سواء أكان شعراً أم نثراً، منظوماً أم مكتوباً، فردياً أم جماعياً، ذاتياً أم مؤسسياً"³⁵.
- "الخطاب يمثل وحدة لسانية متكوّنة من جمل متعاقبة.... ويعني استنفار بنيات من نوع غير نوع الجملة"³⁶.
- والخطاب حسب (بنفيسست): "هو كل تلفظ يفترض متحدثاً ومستمعا، تكون للطرف الأول نية التأثير في الطرف الثاني بشكل من الأشكال"³⁷.

نخلص على ضوء هذه التعاريف والمفاهيم السابقة، إلى أنَّ الخطاب هو ما يحمل دلالة، وينقل رسالة من مرسل إلى مرسل إليه عبر وسيط لساني (لغة/نص/كلام)، وذلك قصد إفهام المتلقي. فالخطاب - إذن - عبارة عن متوالية من الجمل ينتجها مرسل ويتلقاها مخاطب.

- مفهوم القرآن:

- في المعاجم اللغوية:

ورد لفظ القرآن في معجم لسان العرب مأخوذ من المادة المعجمية (قَرَأَ)، جاء فيه: "القرآن: التنزيل يُسَمَّى كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيه - صلى الله عليه وسلم، كِتَابًا وَقُرْآنًا وَقُرْآنًا، ومعنى القرآن: الجمع، وسُمِّيَ قرآناً لأنه يجمع السور فيضمها. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾³⁸، أي جمعه وقراءته. وقرأت الشيء قرآناً: جمعته

وَضَمَمْتُ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ. وَسَمِّيَ الْقُرْآنُ لِأَنَّهُ جَمَعَ الْقِصَصَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْوَعِيدَ وَالْآيَاتِ وَالسُّورَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَهُوَ مَصْدَرُ كَالْعُفْرَانِ وَالْكُفْرَانِ³⁹.

وجاء في المختار من صحاح اللغة في مادة قَرَأَ: " قَرَأَ الْكِتَابَ قِرَاءَةً، وَقُرَأْنَا بِالضَّمِّ. وَقَرَأَ الشَّيْءُ قُرْآنًا - بِالضَّمِّ أَيْضًا - جَمْعُهُ وَضَمُّهُ. وَمِنْهُ سَمِّيَ الْقُرْآنُ: لِأَنَّهُ يَجْمَعُ السُّورَ وَيَضُمُّهَا"⁴⁰.

وفي المعجم الوسيط: " قَرَأَ الْكِتَابَ قِرَاءَةً، قُرَأْنَا: تَتَبَعَ كَلِمَاتِهِ وَنَطَقَ بِهَا. وَقَرَأَ الشَّيْءُ قَرِئًا وَقُرْآنًا: جَمْعُهُ وَضَمُّ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ"⁴¹.

مَّا تَقَدَّمَ، نَخْلُصُ إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّ لِكَلِمَةِ قُرْآنٍ هُوَ: الْجَمْعُ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ وَيَضُمُّ بَيْنَ دَفْتَيْهِ سُورَ وَآيِ الْقُرْآنِ، وَكَذَلِكَ جَمْعُهُ لِلْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَقِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا أَنَّهُ قَدْ يَأْتِي بِمَعْنَى الْقِرَاءَةِ، نِسْبَةً إِلَى تَسْمِيَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ يُقْرَأُ وَيُتْلَى؛ فَالْقُرْآنُ فِي اللُّغَةِ مَصْدَرٌ مَهْمُوزٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْفِعْلِ قَرَأَ بِمَعْنَى تَلَا أَوْ قَرَأَ بِمَعْنَى جَمَعَ وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ؛ فَإِنْ قَالَ الْقَائِلُ: إِنَّ الْقُرْآنَ مَقْرُوءٌ بِمَعْنَى مُتْلُوٌّ فَهُوَ صَحِيحٌ، وَإِنْ قَالَ إِنَّهُ قَارِئٌ بِمَعْنَى جَامِعٍ لِلْأَخْبَارِ وَالْأَحْكَامِ وَالْقِصَصِ فَهُوَ كَذَلِكَ. وَمِنْ هُنَا، تَكُونُ كَلِمَةُ قَرَأَ بِمَعْنَى التَّلَاوَةِ، حَيْثُ تَحِيلُ عَلَى اسْمِ الْمَفْعُولِ مُتْلُوٌّ (عَلَى وَزْنِ مَفْعُولٍ)، كَمَا تَعْنِي أَيْضًا الْجَمْعَ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَحِيلُ عَلَى اسْمِ الْفَاعِلِ جَامِعٍ (عَلَى وَزْنِ فَاعِلٍ).

- فِي الْإِصْطِلَاحِ :

يُعْرِفُهُ هَبَّةُ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ الطَّبْرِيِّ اللَّائِلُكَائِي (ت 419 هـ)، فيقول: "إِنَّ الْقُرْآنَ تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَأَنَّهُ أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَحَدَّى بِهِ، وَأَنْ يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ الْقُرْآنُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، مُتْلُوٌّ فِي الْمَحَارِيبِ مَكْتُوبًا فِي الْمَصَاحِفِ، مَحْفُوظًا فِي صُدُورِ الرِّجَالِ، هُوَ قُرْآنٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَغَيْرُ مَجْعُولٍ، بَلْ هُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ"⁴².
بدا لنا من خلال هذا التعريف، أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهِ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْمُعْجَزِ، الْمُنْزَلُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقِيقَةً بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ، وَأَنَّهُ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لَا يَشْتَرِكُ فِيهِ مَعَهُ أَحَدٌ، مَكْتُوبًا فِي الْمَصَاحِفِ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

و جَاءَ فِي مَنَاهِلِ الْعُرْفَانِ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ: "الْقُرْآنُ الْكَلَامُ الْمُعْجَزُ، الْمُنْزَلُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ إِلَى آخِرِ سُورَةِ النَّاسِ"⁴³. يفهم من هذا الكلام، أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهِ لَفْظٌ وَكَلَامٌ، فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِدَايَةِ مِنْ أَمُّ الْكِتَابِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، نَهَايَةِ إِلَى سُورَةِ النَّاسِ.

و هذا مَا نَقِفُ عَلَيْهِ عِنْدَ ابْنِ قُدَامَةَ (ت 620 هـ)، إِذْ يَقُولُ: "وَكِتَابُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ هُوَ كَلَامُهُ، وَهُوَ مَا نُقِلَ إِلَيْنَا بَيْنَ دَفْتَيْ الْمَصْحَفِ نَقْلًا مُتَوَاتِرًا"⁴⁴. والملاحظ من خلال هذا التعريف أَنَّ ابْنَ قُدَامَةَ قَدْ نَحَا نَحْوَ سَابِقِيهِ فِي تَحْدِيدِهِ لِلْقُرْآنِ، فَهُوَ عِنْدَهُ كَلَامُ اللَّهِ الْمَكْتُوبُ فِي الْمَصَاحِفِ، الْمُنْقُولُ إِلَيْنَا بِالتَّوَاتُرِ، وَمَعْنَى التَّوَاتُرِ هُنَا؛ أَنَّهُ نُقِلَ إِلَيْنَا مِنْ جَمْعٍ إِلَى جَمْعٍ، فَقَدْ تَلَقَّاهُ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مُشَافَهَةً مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَقَلُوهُ إِلَى جِيلِ التَّابِعِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، شَرِيطَةً تَوْحَى الصِّدْقَ وَالدَّقَّةَ فِي النُّقْلِ .

ومن التعاريف الموجزة للقرآن، نُلفي تحديداً آخر؛ وهو: "اللفظ المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس"⁴⁵. إنَّ هذا المعنى قد أجمع عليه المسلمون قاطبة، ولم يَشُدَّ عن هذا الإجماع إلا طائفة، زعمت أنَّ القرآن فيه نَقْصٌ، كما زعموا أنه قد حُذِفَ منه أشياء، وزيد فيه. أوله سورة الفاتحة وآخره سورة الناس، فما بين هاتين السورتين كله كلام الله؛ قال عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾⁴⁶، فالذكر ههنا هو القرآن، تولاه الله بالحفظ من النقص والزيادة والتحريف والتبديل والحمد لله.

ومن التعريفات المعاصرة، نلفي تعريف الشيخ مناع القطان (ت 1420هـ)؛ حيث يقول: "القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة التي لا يزيدنها التقدم العلمي إلا رسوخاً في الإعجاز. أنزله الله على رسولنا محمد-صلى الله عليه وسلم- ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الصراط المستقيم"⁴⁷.

"والقرآن كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه، وفي علومه وحكمه وفي تأثير هدايته، وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلية، وقد تحدى محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- النبي العربي "الأمي العرب بإعجازه وحكى لهم عن ربه القطع بعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله؛ قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾⁴⁸، فظهر عجزهم على شدة حرص بلغائهم على إبطال دعوته، واجتثاث نبتته، ونقل جميع المسلمين هذا التحدي إلى جميع الأمم فظهر عجزها أيضاً"⁴⁹.
محمل هذا التوصيف، يؤدي بنا إلى الجزم بأن القرآن الكريم كلام الله تعالى على الحقيقة بحرف وصوت، والأدلة على ذلك كثيرة؛ قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾⁵⁰؛ أكد الكلام بالمصدر لينفي احتمال المجاز، وهذا دليل على بطلان قول المعتزلة بأن الشجرة هي التي كلمت موسى؛ فهم يؤولون -أي المعتزلة- قول الله تعالى (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً)، كما في تفسير الزمخشري بمعنى جَرَحَهُ تَجْرِيحاً، فكلمته مأخوذ من الكلم الذي هو الجرح، أي كلمه بمعنى جرحه بمخالب الحكمة، وليس من التكلیم والكلام، وهذا غاية التحريف. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي وَلَكِنْ أَنظُرْ إِلَيَّ فَإِنْ أَجَلْتُ فَإِنْ إِسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَسَوْفَ تَرِينِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁵¹، وقال أيضاً: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾⁵²؛ فالفاعل في نَادَيْنَاهُ هو "الله"، والنداء يكون بصوت مرتفع، فالله جلّ وعلا يتكلم بكلام مسموع بصوت.

لقد جَلَّى المولى عز وجل قَصِيَّةَ الإعجاز في خطابه المتعالي في ظاهره وباطنه في شكله ومضمونه، فضلاً عن سبكه المحكم ونظمه المنسجم، وتأليفه الحسن، ومعانيه المرصوفة، فقد جعل منه المولى -جلّ وعلا- جوهرًا معرفيًا لكل مُدْرِكٍ كَوْنِيٍّ، فكان بذلك دستوراً صَيَّرَ العرب رعاة الشاء والغنم سَاسَةً شعوب وقادة أُمَمٍ؛ يقول الوليد بن المغيرة، وهو يقرّ بعظمة القرآن وفضله، نافيًا أن يكون شعر شاعر أو زمجرة كاهن، قائلاً كلامه المشهور: "لقد رأينا الكهّان فما هو بِزَمَزَمَةِ الكاهن ولا سجعهم، ولقد عرفنا الشعر كلّ، رَجَزَهُ وَهَزَجَهُ وَقَرِيضَهُ وَمَقْبُوضَهُ وَمَبْسُوطَهُ، فما هو بالشعر، ولقد رأينا السحرة وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول؟ قال: والله إنَّ لقوله لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة

، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثَمِّرٌ، وَإِنَّ لَأَسْفَلَهُ لَمُعْدِقٌ، وَإِنَّهُ يَغْلُو وَلَا يُغْلَى عَلَيْهِ". ومن ثمة، فإنَّ الخطاب المتعالي في ظاهره ، عبارة عن نظم لسلاسل الكلم والألفاظ، والأنساق والعبارات، لا تختلف عما ألف الناس، ممَّا يجري على ألسنة العرب، وممَّا جرى عليه ملفوظهم ، ممَّا يُصَاغُ من نثرهم ، وشعرهم، وخطبهم، ونظمهم، وأساليبهم، وحكمهم، وأمثالهم، ومساجلاتهم، وقصيدهم، ورجزهم؛ وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾⁵³.

- تجليات أسلوب التقديم والتأخير في الخطاب القرآني:

ممَّا لاشكَّ فيه، أنَّ مقولة سيبويه المقتضبة حول ثنائية التقديم والتأخير قد حقّزت علماء البلاغة في تقفّي أثره، وكشف كنهه وتجليه أسرارهِ وجمالياتهِ، فكانت بمثابة اللبنة الأولى التي أسست لرؤية جديدة، تبني على أسس ورؤى جمالية؛ وهذا ما أدّى بالجرجاني إلى التعليق على عبارة سيبويه السالفة الذكر؛ إذ نلفيه يقول: " فهذا جيّد بالغ، إلا أنَّ الشَّأن في أنَّه ينبغي أن يُعرف في كلّ شيء قُدّم في موضع من الكلام مثلُ هذا المعنى، ويفسّر وَجْهُ العناية في هذا التفسير"⁵⁴، ويظهر أنَّ هذا الكلام هو الذي حقّز علماء الإعجاز إلى استقراء مواضع التقديم والتأخير، وربطها بالجوانب الفنية والبلاغية والجمالية في القرآن الكريم.

وعبر هذا المقرب، فإنَّ الحديث عن أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم، يكون القصد من ورائه الوقوف عند تلك الجوانب الإبداعية والإعجازية في هذا الخطاب المتعالي؛ الذي فاق وتعالى وتسامى على المتعارف عليه في كلام العرب، شعرا ونثرا. وعليه، سنحاول في هذا المبحث استقراء المواطن الذي تجلّى فيها أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم، الذي يُعَدُّ بحقّ سمة بارزة من سمات الجمال في التعبير القرآني.

وممَّا يجدر أن ننبّه عليه ابتداءً، أنَّ حصر مواطن وأغراض التقديم والتأخير، هو ضرب من المستحيل، وعليه سنكتفي ببعض الشواهد القرآنية من كلّ قسم.

والتقديم والتأخير على قسمين:

- القسم الأوّل:

- تقديم اللفظ على عامله: كتقديم المفعول به على فعله، وتقديم الحال على فعله، وتقديم الظرف والجاء والمجرور

على فعلهما، وتقديم الخبر على المبتدأ، وتقديم خبر كان على كان ، ونحو ذلك.

ومن أمثلة تقديم المفعول به على الفاعل في القرآن الكريم:

❖ قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾⁵⁵، في الآية تقديم وتأخير، قَدّم المفعول به وهو ضمير النَّصب

المنفصل (إِيَّاكَ) على عامله (نَعْبُدُ)، والقاعدة تقول: إذا كان المفعول به ضمير نصب بارز وجب تقديمه، والتقديم

هنا أفاد نكتة بلاغية وهي الاختصاص كما ذكر الزمخشري⁵⁶ في كشّافه؛ أي: نخصّك بالعبادة والاستعانة.

فالأصل: نعبدك ونستعينك، فالتقديم هنا أفاد اختصاص الله جلّ وعلا بالعبادة والاستعانة، فلا معبود بحقّ إلا

هو، ولا مستعان إلاّ به جلّت قدرته، فصرف العبادة لغيره هو شرك به. وقَدّمت العبادة على الاستعانة هنا؛

"لأنّ تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة إليها"⁵⁷. وذهب ابن الأثير أنّ التقديم في الآية، لمكان نظم الكلام؛ "لأنّه لو قال نعبدك ونستعينك، لم يكن له من الحسن ما لقوله (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، ألا ترى أنّ تقدّم قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ *الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿58﴾، فجاء بعد ذلك قوله (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، وذلك لمراعاة حُسْنِ النّظم السّجعي، الذي هو على حرف النّون، ولو قال: نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطّلاوة، وزال ذلك الحسن"⁵⁹. والمرجح - والله أعلم - أنّ التقديم كان لقصد الاختصاص من جهة المعنى، و لمكان النظم ومراعاة لفاصلة من جهة اللفظ. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِيَّيْ فَارْهَبُون﴾⁶⁰، ﴿وَإِيَّيْ فَاتَّقُوا﴾⁶¹.

❖ قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾⁶²، والأصل: فاعْبُد الله، قدّم المفعول به (الله)، على فعل العبادة.

❖ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾⁶³، قدّم المفعول به (الله)، لأنّ الفاعل وقع عليه الحصر بـ (إنّما)، ولا بدّ من هذا التقديم، فتقديم اسم الله وتأخير العلماء، كان المعنى: إنّ الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم.

❖ وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾⁶⁴، قدّم المفعول به (خيفة) على الفاعل (موسى)، والأصل: فأوجس موسى في نفسه خيفة، وإنّما قدّم المفعول به على الفاعل وفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول والجار قصدا لتحسين النظم⁶⁵. سبب آخر للتقديم هنا، وهو لو أخر (في نفسه) عن (موسى)؛ فات تناسب الفواصل؛ لأنّ قبله ﴿يُجِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَهْأَتَسْمِعُ﴾ وبعده ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾.

❖ وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ *ثُمَّ اجْبِشْهُ صَلَوةُ﴾⁶⁶، قدّم المفعول به (الجبش)، على الفعل والفاعل (فصلوه)، والتقدير: صَلَوةُ الْجَبِشِ، التقديم هنا للفضيلة السّجعية، ولا مرأى في أنّ هذا النّظم على هذه الصّورة أحسن من أن لو قيل: خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ صَلَوةُ الْجَبِشِ⁶⁷.

❖ وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾⁶⁸، قدّم (اليتم) لأنّه مفعول (تقهر)، وقدّم (السائل) لأنّه مفعول (تنهر).

❖ وقوله تعالى: ﴿وَعَايَةً لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ *وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ هَآذَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿69﴾، وقرئ: اللَّيْلُ بِالرَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، أو العطف على اللَّيْلِ، أمّا بالنصب على أنّه مفعول به مقدّم على الفعل والفاعل، والتقدير: قدّرنا القمر منازل حتّى عاد كالعرجون القديم، وسرّ التقديم هنا، من جهة مراعاة نظم الكلام، حتّى يتحقّق نسق الكلام، فإنّه قال: "اللّيل نسلخ منه النهار" ثمّ قال: "والشمس تجري"، فافتضى حسن النظم أن يقول على نسق ما قبله "والقمر قدّرناه"، ولو قال: "وقدّرنا القمر" لاختلّ النّظم.

- ❖ وقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾⁷⁰، هذا مفعول مقدم (إبراهيم)، وهو واجب التقديم على فاعله (رَبُّهُ)، لأنَّ فيه ضمير (الهاء) يعود على المفعول به، وبلاغة التقديم هنا للاهتمام.
- ❖ وقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾⁷¹، الأصل في كلام العرب أن يأتي الفعل ثم الفاعل ثم المفعول به، وأحياناً يقدم المفعول به للاهتمام بالفاعل، فالموت (الفاعل) هو الذي حضر إلى يعقوب (المفعول به)، ولكن قدّم للاهتمام والعناية به.
- وشواهد تقديم المفعول به على الفاعل في القرآن الكريم كثيرة، لا يسع المقام لذكرها وحصرها.
- ومن أمثلة تقديم الخبر على المبتدأ في القرآن الكريم:
- ❖ قوله تعالى: ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ﴾⁷²، في الآية تقديم للخبر (مَانِعَتُهُمْ) على المبتدأ (حُصُونُهُمْ)، والتقدير هنا: وَظَنُوا أَنَّ حُصُونَهُمْ مَانِعَتُهُمْ، والتقديم هنا من الوجهة البلاغية يحيل — في اعتقادنا — على فرط ظنهم وثقتهم الزائدة في حصانتها.
- ❖ وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾⁷³، قدّم الخبر (أَرَأَيْبُ) على المبتدأ (أَنْتَ)، والتقدير: أَنْتَ رَأَيْبٌ، ولم يقله، لأنَّ ذكر الخبر مقدّماً أهمّ عنده، وبه شديد العناية، وفي ذلك ضرب من التعجّب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته، وأنَّ آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها⁷⁴.
- ❖ وقوله تعالى: ﴿وَفِي السَّجَّةِ أَلْبَارِئُ هُمْ خُلْدُونَ﴾⁷⁵، أي: هم خالدون في النار، والتقديم هنا أفاد الاختصاص.
- ❖ وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾⁷⁶، قدّم الخبر (سَلَامٌ) على المبتدأ (هِيَ)، لأهميته.
- ❖ وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُ هُمُ اللَّيْلُ﴾⁷⁷، قدّم الخبر (آيَةُ) على المبتدأ (الَّيْلُ).
- ❖ وقوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَيَّ قُلُوبٌ أَقْفَالُهَا﴾⁷⁸، (على قلوب) جار ومجرور متعلّق بخبر محذوف، و(أقفالها) مبتدأ مؤخّر، إضافة الأقفال للدلالة على أنّها أقفال مخصوصة بها، ففي الكلام استعارة فقد شبه القلوب بالصناديق، واستعار لها شيئاً من لوازمها وهي الأقفال المختصة بها، لاستبعاد فتحها واستمرار إغلاقها.
- ومن أمثلة تقديم خبر كان وأخواتها من القرآن:
- ❖ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁷⁹، قدّم خبر كان (حَقًّا) على اسمها (نَصْرُ).
- ❖ وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيَّ الضُّعْفَاءُ وَلَا عَلَيَّ الْمُرْضِيُّ وَلَا عَلَيَّ الَّذِينَ لَا يُجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾⁸⁰، خبر ليس هنا (على الضّعفاء) مقدّم على اسمها (حرج).
- ❖ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾⁸¹، قدّم خبر كان (قَوْلُهُمْ) على اسمه المصدر المؤوّل (أَنْ قَالُوا). وقدّم خبر كان على اسمها، لأنّه خبر عن مبتدأ محصور، لأنّ المقصود حصر أقوالهم حينئذ في مقالة (ربّنا اغفر لنا ذنوبنا).

❖ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾⁸²، قَدَّمَ خبر كان (قَوْلُهُمْ) على اسمه المصدر المؤول (أَنْ قَالُوا)، وقَدَّمَ خبر كان على اسمها، لأنَّه خبر عن مبتدأ محصور، فهو قصر حقيقي.

❖ قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾⁸³، قَدَّمَ الخبر (أَحَدٌ) على الاسم (كُفُوًا).
وأما تقديم الظرف على عامله، ففيه تفصيل، فإن كان في الإثبات دَلٌّ على الاختصاص⁸⁴، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾⁸⁵، وقوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾⁸⁶، إنَّ تقديم الظرف في الآيتين (إِلَيْنَا/لَهُ) يفيد اختصاص ذلك بالمولى جلّ وعلا.

وإن كان في النفي، فإنَّ تقديمه يفيد تفضيل المنفي عنه، كما في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾⁸⁷، أي ليس في خمر الجنة ما في خمرة غيرها من الغول⁸⁸ (أي: الذهاب).
وأما تأخيرها، فإنَّها تفيد النفي فقط، كما في قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

تقديم الحال على عامله:

❖ قوله تعالى: ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ﴾⁸⁹، قَدَّمَ الحال (خُشَعًا) على عامله (يَخْرُجُونَ)؛ (خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ) كناية عن الذلة.

– القسم الثاني:

– تقديم الألفاظ بعضها على بعض في غير العامل: وهو أن يُقَدَّمَ ما هو أولى به التَّأخير، لأنَّ المعنى يَخْتَلُّ بذلك ويضطرب؛ "فالقرآن يقدّم الألفاظ ويؤخرها حسب ما يقتضيه المقام، فقد يكون سياق الكلام مثلاً متدرجاً حسب القدم والأولوية في الوجود، فيرتب الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا"⁹⁰؛ ومن أمثلة ذلك في القرآن:

❖ قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾⁹¹، السَّنةُ مصدر الفعل المضارع (يَسِنُّ)، والوسنُ مصدر الفعل الماضي (وَسَنَ)، وهي التعاس الذي يسبق النوم، فبدأ بالسَّنة ثم النوم.

❖ وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁹²، قَدَّمَ الجنَّ على الإنس؛ لأنَّه سابق في الخلق.

❖ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي أَمَةٍ فَلَيْلٌ يَسْبَحُونَ﴾⁹³، قَدَّمَ الليل على النهار؛ لأنَّه يسبقه، وقَدَّمَ الشمس على القمر لأنَّها قبله في الوجود.

❖ وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾⁹⁴، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾⁹⁵، وقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾⁹⁶، قَدَّمَ الموت على الحياة، وسبب التقديم ههنا من عدّة وجوه⁹⁷:

– الوجه الأول: أنَّ حياة الإنسان كلا الحياتين، ومآله إلى الموت، ولا حياة إلا بعد الموت.

– الوجه الثاني: أنَّ الموت يُقَدَّمَ في الوجود، إذ الإنسان قبل نفخ الرّوح فيه كان ميتاً لعدم الرّوح، وهذا إن أُريد بالموت عدم الوجود.

❖ وقوله تعالى: ﴿تَرْبِيَهُمْ زَكَّاءً سَجْدًا﴾⁹⁸، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِزْكِعُوا وَاسْجُدُوا﴾⁹⁹، قدّم الركوع على السجود؛ لأنّه سبق وجوب.

❖ وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾¹⁰⁰، قدّم العبادة لأنّها سبب حصول الاستعانة، فلا استعانة من دون عبادة لله عزّ وجلّ.

❖ وقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾¹⁰¹، قدّم السارق لأنّ السرقة في الذكور أكثر.

❖ وقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾¹⁰²، قدّم الزّانية لأنّ الزّنا في الإناث أكثر.

وهناك شواهد أخرى من التقديم والتأخير في القرآن الكريم، أعرضنا عنها بغية الإيجاز، واكتفينا بما عرضنا له، ليتركّز البحث في أنماط معيّنة منه.

خاتمة:

صفوة القول، فإنّ أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم، يشكّل إحدى روائع البلاغة القرآنية التي تبرز عظمة النص القرآني ودقّة تركيبه. إن التصرّف في رتبة الكلمات ليس عشوائياً، بل من ورائه قصدٌ قصده المتكلّم، فهو إعجاز يهدف إلى تعميق وتوسّع في المعنى، والتأكيد على مفهوم، ورسالة معينة، أو لجذب الانتباه إلى جزئية مهمّة، حيث يتجلّى في هذا الأسلوب جمال اللّغة العربية وقدرتها على التعبير بأساليب متنوعة، مؤكّداً على الحكمة الإلهية، والدقّة اللغويّة، التي تضمّنتها كل آية من آيات القرآن الكريم؛ الذي فاق وتعالى وتسامى على المتعارف عليه في كلام العرب، شعرا ونثرا.

تكمن جمالية التقديم والتأخير في القرآن الكريم، من حيث هي ظاهرة تنطوي على كثير من الدقائق، والعجائب، واللطائف، والأسرار، لا يتفطنّ إليها إلا من كان ملماً بأسرار اللغة العربيّة حاذقاً به.

هوامش الدّراسة:

¹ - سورة النحل، الآية : 6.

² - صحيح مسلم، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، دار حياة التراث العربي، بيروت، ج 1، ص 93.

³ - ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، ت711هـ)، لسان العرب، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، سنة 1414هـ، الجزء: 11، ص: 126.

⁴ - الجوهري(أبو نصر إسماعيل بن حمّاد)، الصحاح، تحقيق: محمد محمد تامر وآخرون، دار الحديث، القاهرة، مصر، (د.ط)، سنة 2009، ص: 201.

⁵ - أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، سنة 2008، المجلّد: 1، ص: 397-398.

- 6 - د. عبد الكريم عاصي المحمود، الجمال في المنظور الإسلامي، مجلة كلية الفقه، قسم اللغة العربية، جامعة الكوفة، العدد: 16، سنة 2012، ص: 16.
- 7 - ينظر: القرطبي (أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ت671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، المبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، سنة 2006، الجزء: 12، ص: 274.
- 8 - سورة النحل، الآية: 5-7.
- 9 - ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الجزء: 12، ص: 274-275.
- 10 - سورة الأعراف: الآية 26.
- 11 - ينظر: أحمد فرجي، التقديم والتأخير عند النحاة، شواهد من القرآن الكريم، رسالة ماجستير، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة تلمسان، الجزائر، السنة الجامعية: 1993، ص: 22.
- 12 - ابن منظور، لسان العرب، ج: 12، ص: 465.
- 13 - المصدر نفسه، ج: 1، ص: 66.
- 14 - د. محمد سمير نجيب اللبدي، معجم المصطلحات النحوية والصرفية، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط1، سنة 1985، ص: 183.
- 15 - المرجع نفسه، ص: 09.
- 16 - إمام النحو، حجة العرب، أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر، الفارسي، ثم البصري، صاحب الكتاب. أخذ النحو عن عيسى بن عمر، ويونس بن حبيب، والخليل، والأخفش الكبير، قيل قتلته المسألة الزنبورية. سمي سيبويه، لأنّ وجنتيه كانتا كالتفاحتين، بديع الحُسن. وقيل: عاش اثنتين وثلاثين سنة، وقيل: نحو الأربعين. قيل في وفاته: مات سنة ثمانين ومائة وهو أصح، وقيل: سنة ثمان وثمانين ومائة. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء الذهبي، ج: 8، ص: 351-352.
- 17 - سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط3، 1408هـ-1988، ج: 1، ص: 34.
- 18 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، سنة 2004، ص: 106.
- 19 - الزركشي (بدر الدين محمد ابن عبد الله)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: أبي الفضل الدميّاطي، دار الحديث، القاهرة، (د. ط)، 2006، ص: 770.
- 20 - ابن الأثير (ضياء الدين)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة - دار نخضة مصر، القاهرة، ط2، (د. ت)، القسم: 2، ص: 210.
- 21 - ينظر: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، اطّلع عليه بتاريخ: 2024/04/05، <https://www.islamweb.net>
- 22 - سورة التوبة، الآية: 85.
- 23 - ابن جرير الطبري (ت310هـ)، تفسير الطبري، المسمّى: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط1، 2001، ج: 14، ص: 295.
- 24 - ابن منظور، لسان العرب، ج: 01، ص: 360.
- 25 - سورة الحجر، الآية: 57.
- 26 - سورة يوسف، الآية: 51.
- 27 - سورة طه: الآية 95.
- 28 - ابن منظور، لسان العرب، ج: 01، ص: 361.
- 29 - سورة ص، الآية: 20.
- 30 - الزمخشري (أبو القاسم محمود ابن عمر)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، سنة 1430هـ-2009م، ص: 921.
- 31 - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، سنة 2004،

- 32 - ابن منظور ، لسان العرب ، ج:5، ص:98.
- 33 - محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان، بيروت، سنة 1982، ص: 76.
- 34 - مجدي وهبه وكامل المهندس، معجم المصطلحات اللغوية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص: 159.
- 35 - ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، دار التنوير ، لبنان، 1984 ، ص: 9.
- 36 - باتريك شارودو، دومنيك ماندو ، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القاهر المهيري وحمادي صمود، منشورات دار سيناترا، تونس، 2008، ص : 202.
- 37 - محمد الباردي ، إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة ، مركز النشر الجامعي، تونس، 2004، ص:1.
- 38 - سورة القيامة، الآية: 17.
- 39 - ابن منظور ، لسان العرب،ج:01، ص:128-129.
- 40 - محمد محي الدين عبد الحميد ومحمد عبد اللطيف السبكي، المختار من صحاح اللغة، دار السرور، بيروت، د. ط ، ص: 414-415.
- 41 - مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ص: 722.
- 42 - اللالكائي (أبو القاسم هبة الله بن الحسن الطبري)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تح: أبو يعقوب نُشأت بن كمال المصري، دار البصيرة، الاسكندرية، (د ط)، 2012، مج 2، ص: 330.
- 43 - الزُّرقاني (مُحَمَّد عبد الباقي)، مناهل العرفان في عُلُوم القرآن، تح: فؤاز أحمد زمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1995، ج 1، ص: 14.
- 44 - ابن قدامة (موفق الدين عبد الله بن أحمد)، روضة الناظر وجنة المناظر، تح: محمد مراي، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط 1، 2009، ص: 266 _ 267.
- 45 - الفيروز أبادي، بصائر ذوي التمييز، تح: عبد الحليم الطحاوي، المكتبة العلمية، بيروت، ج:1، ص:84، نقلا عن كتاب: علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير من نشأتها على غاية القرن الثامن هجري ، محمد صفا شيخ ، براهيم حقي ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 2004، مج:1، ص:41.
- 46 - سورة الحجر ، الآية: 09.
- 47 - مناع القطان، مباحث في علوم القرآن ، مكتبة وهبة، القاهرة ، ط7، (د.ت)، ص: 5.
- 48 - سورة الإسراء ، الآية: 88.
- 49 - ينظر: محمد صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 9، 1973، ص: 18.
- 50 - سورة النساء، الآية: 164.
- 51 - سورة الأعراف ، الآية: 431.
- 52 - سورة مريم ، الآية :52.
- 53 - سورة يوسف، الآية:02.
- 54 - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 108.
- 55 - سورة الفاتحة، الآية:05.
- 56 - الزمخشري، الكشاف، ص: 28.
- 57 - المصدر نفسه، ص:29.
- 58 - سورة الفاتحة، الآية:1-4.
- 59 - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب، ج:2، ص:211.
- 60 - سورة البقرة، الآية:40.
- 61 - سورة البقرة، الآية:41.
- 62 - سورة الزمر، الآية:65.
- 63 - سورة فاطر، الآية:28.
- 64 - سورة طه، الآية: 67.

- 65 - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب، ج: 2، ص: 212.
- 66 - سورة الحاقة، الآية: 31-32.
- 67 - ابن الأثير، أدب الكاتب، ج: 2، ص: 213.
- 68 - سورة الضحى، الآية: 9-10.
- 69 - سورة يس، الآية: 37-39.
- 3 - سورة البقرة، الآية: 124.
- 71 - سورة البقرة، الآية: 133.
- 72 - سورة الحشر، الآية: 02.
- 73 - سورة مريم، الآية: 46.
- 74 - ابن الأثير، المثل السائر، ج: 2، ص: 216.
- 75 - سورة التوبة، الآية: 17.
- 76 - سورة القدر، الآية: 05.
- 77 - سورة يس، الآية: 37.
- 78 - سورة محمد، الآية: 24.
- 79 - سورة الزم، الآية: 47.
- 80 - سورة التوبة، الآية: 91.
- 81 - سورة آل عمران، الآية: 147.
- 82 - سورة النور، الآية: 51.
- 83 - سورة الإخلاص، الآية: 04.
- 84 - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص: 772.
- 85 - سورة الغاشية، الآية: 25-26.
- 86 - سورة التغابن، الآية: 01.
- 87 - سورة الصافات، الآية: 47.
- 88 - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص: 773.
- 89 - سورة القمر، الآية: 07.
- 90 - فاضل السامرائي، أسرار البيان في التعبير القرآني، محاضرة ألقاها ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، سنة 2002، ص: 17، المكتبة الرقمية الشاملة، <https://shamela.ws/book/9589/1>
- 91 - سورة البقرة، الآية: 245.
- 92 - سورة الداريات، الآية: 56.
- 93 - سورة الأنبياء، الآية: 33.
- 94 - سورة الملك، الآية: 02.
- 95 - سورة النجم، الآية: 44.
- 96 - سورة البقرة، الآية: 28.
- 97 - ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص: 777.
- 98 - سورة الفتح، الآية: 29.
- 99 - سورة الحج، الآية: 77.
- 100 - سورة الفاتحة، الآية: 05.
- 101 - سورة المائدة، الآية: 38.
- 102 - سورة التور، الآية: 02.